دراسات الأدب المعاصر، السنة العاشرة، صيف ۱۳۹۷، العدد الثامن والثلاثون: صص ۹۱- ۱۰۶

العنف الثوری والنفحة الجماهيرية الشعبية فی شعر محمد مهدی الجواهری

فرزانه اسماعيلی *
رحيم انصاری پور **
صديقه سادات مقداری ***

تاريخ الوصول: ۹۶/۱۲/۱۶
تاريخ القبول: ۹۷/۲/۱۲

الملخص

تناولت هذه الدراسة العنف الثوری والنفحة الجماهيرية الشعبية فی شعر محمد *مهدی الجواهری* الذی عاش فی زمن مخاض الحوادث والتطورات السياسية التی مرت علی العراق بدء من ثورة العشرين وانتهاءً بحزب البعث، فالعنف الثوری فی شعر *الجواهری* يعود إلی الطبيعة المزاجية العنيفة التی تمتاز بها شخصية *الجواهری*. فعنف *الجواهری* ليس بالعنف الذی يوحی بالخشونة والحقد، فهو عنف تتطلبه ضرورة الموقف والزمن وهو عنف قد جاء بمثابة رد فعل طبيعی لواقعٍ مر. إنَّ وظيفة *الجواهری* بالنسبة للجماهير تكون مضاعفة فهو فضلاً عن اشتراكه مع الجماهير فی ايجاد الحدث فإنه يری نفسه مسؤولاً عن حفظ ذلک الحدث بقصائده وأشعاره لذلک كانت أشعاره كالماء والهواء يتلقاها الناس بحرارة وينشدونها حباً. وبحكم العلاقة الوطيدة بين *الجواهری* وبقية الجماهير فالشعبية كانت من مضامين شعر *الجواهری*، فلا يغيب عن أی قضية تحف الشعب دون أن يلتفت إليها أو يشير بها أو يدافع عنها. *فالجواهری* وإن كان مغترباً لم ينسی شعبه وهمومهم ومعاناتهم.

الكلمات الدليلية: العنف الثوری، الشعب، الشعر، الجماهير الأدب العراقی، الإغتراب.

* ماجستير فی اللغة العربية وآدابها، إيلام، ايران.
** أستاذ مساعد فی جامعة آزاد الاسلامية، إيلام، ايران. raheemansaripour@yahoo.com
*** أستاذة مساعدة فی قسم اللغويات العامة، جامعة پيام نور، قاين.
الكاتب المسئول: رحيم انصاری پور

المقدمة

تناولت هذه الدراسة العنف الثورى والنفحة الجماهيرية الشعبية فى شعر محمد *مهدى الجواهرى*. الذى عاش فى زمن مخاض الحوادث والتطورات السياسية التى مرت على العراق. يكفى أن تنظر وتتأمل فى القصائد الجواهرية والتى أنشدها عبر قرن كامل لتجد أن *الجواهرى* قد سلك طريقاً شعرياً تمحور فيه على أسس عموده الوطن، فالوطن هو الشغل الشاغل للشاعر، والوطن عبارة عن وحدات متراصفة فوق أخرى، لتبدأ من الأهل، المجتمع، الأرض بسهوله ووديانه وجباله وصحرائه، لم يتوقف *الجواهرى* فى حدود وطنه بل كان يرى وطنه إمتداد الوطن أكبر وأن هموم هذا الوطن هى هموم الأمة فسعادة شعبه هى من سعادة أمته ومحنة شعبه هى محنة أمته، وإذا كان الإستعمار الإنجليزى قد نهش لسنين طويلة جسد العراق، فسورية ومصر والجزائر قد إبتلت وجرحت من حرب الإستعمار الفرنسى وإذا كانت الحكومات الرجعيه قد تسلطت على رقاب الشعب العراقى قرابة خمسين عاماً فالأمر كذلک فى بقية بقاع العالم العربى إذن فالمصيبة *للجواهرى* نفسها والهم واحد لا فكاک.

فعلى المستوى الوطنى كان *الجواهرى* وطيناً غيوراً مدافع عن استقلال بلده وحريته بوجه الطامعين المستعمرين. وكيف يكون *الجواهرى* غير ذلک وهو سليل عائلة عراقية وعربية مناضلة اشتهرت بوطنيتها ومواقفها الكفاحية المعروفة جيداً فى النجف وفى عموم العراق، فوالده كان من الوطنيين الأحرار الذين قاموا الإستعمار البريطانى، أما أخوه جعفر فقد قضى شهيداً وهو فى ريعان الشباب دفاعاً عن الوطن وحريته لقد توسع الفكر الأدبى والسياسى *للجواهرى* فى رقعة الوطنية والقومية لتأخذ أبعاداً اكثر شمولية تضرب فى العمق الإنسانى، أينما كان ويمجد الشواخص الإنسانية بتفاصيلها ومفرداتها أحداثاً وشخصيات وقضايا.

فترى فى شعره إلماماً مطرداً لما يدور حول الأدب العربى وساحاته *والجواهرى* يتمتع بفكر رحب وخيال نافذ والتزام بقضايا الإنسان لقد كتب وأنشد لشخصيات عالمية وأرخ بشعره لأحداث مصيرية مرت على القرن العشرين.

فالعنف الثورى فى شعر *الجواهرى* يعود إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التى تمتاز بها شخصيته. فعنف *الجواهرى* ليس بالعنف الذى يوحى بالخشونة والحقد، فهو عنف تتطلبه

ضرورة الموقف. فالشعبية كانت من مضامين شعر *الجـواهری*، فـلا يغيـب عـن أی قضـية تحف الشعب دون أن يلتفت إليها أو يشير بها أو يدافع عنها.

منهج البحث

اتبع الباحث المنهج الوصفی- التحليلی لما يمتاز به مـن قـدرة علـی وصـف الظـاهرة الأدبية وإظهار الخصائص الأدبية من فكرية وفنية وجمالية للشعر وفق دراسة تحليلية، فهو أنسب المناهج والملائم لدراسة العنف الثـوری و النفحـة الجماهيريـة الشـعبية فـی شـعر *محمد مهدی الجواهری*.

خلفية البحث

وأما عن الجهود السابقة فی هذا المضمار، فإننی أری أننا عندما نبحث فی موضوع مـا، فإن جهودنا- بلا شک- ستكون تكملة لجهود غيرنا، وقد كتـب الكثيـرون مـن قبلنـا عـن العنف الثوری والنفحة الجماهيرية الشعبية، وعن الشعراء الذين عالجوا القضية واهتموا بهـا وأيضا عن *محمد مهدی الجواهری* وأشعاره واهتمامـه ومسـاندته السياسـية والأدبيـة فـی العنف الثوری، ومن البحوث التی درست موضوع فلسطين فی شعر *الجواهری* هی:

اعتمادی، م. ۱۳۸۷ش، «الجواهری حياته، اسلوبه الشعری وخلفيتـه الثقافيـة»، ايـلام: جامعة آزاد الاسلامية

العلوية. ۱۹۶۹م، «محمد مهدی الجواهری»، دراسات نقدية: بغداد

الفـتلاوی، ک.ع. ۱۹۹۹م، «المنتخـب مـن أعـلام الفكـر والأدب»، بيـروت: مؤسسـة المواهب، الطبعة الأولی

جمعة، حسين. ۲۰۰۹م، «ملامح فی الأدب المقاوم؛ فلسطين أنمـوذج»، دمشـق: وزارة الثقافة

وحور، محمد. ۱۹۹۸م، «فلسطين فی شعر الجـواهری»، المؤسسـة العربيـة للدراسـات والنشر. وأما بحثنا هذا فهو أيضا يدرس العنف الثوری والنفحـة الجماهيريـة الشـعبية فـی شعر *محمد مهدی الجواهری* عن طريق تحليل النماذج الشعرية وتختلـف عـن الدراسـات المذكورة من حيث الشكل والتحليل وجدير ستفدنا من البحوث المذكورة فی بحثنا هذا.

مولده و نشأته ومدفنه

أبوفرات محمدمهدی بن الشیخ عبدالحسین بن الشیخ عبدعلی بن الشیخ محمدحسن صاحب «جواهر الکلام»، أشهر مشاهیر الشعراء فی العصر الحاضر إنتهت إلیه إمارة الشعر بلا منازع. تختلف الروایات فی التقدیر الدقیق لتاریخ ولادة *الجواهری*، ومدار هذا الإختلاف بضع سنین؛ ولد *الجواهری* عام ۱۹۰۳م بمدینة النجف الاشرف أو عام ۱۹۰۱م والأول هم الأصح، ومما قیل أنه ولد عام ۱۸۹۹م أو ۱۹۰۰م، ویبدو أن منشأ هذه التقدیرات یعود إلی عدم تصریح *الجواهری* نفسه بالتاریخ الدقیق لولادته، ولکن *الشیخ جعفر محبوبة* مؤلف کتاب «ماضی النجف وحاضرها» والذی یقول *الجواهری* عنه بأنه «صادق وثقة وکتابه قیم»، یقول أن *الجواهری* ولد لیلة السابع عشر من ربیع الأول سنة ۱۳۱۷ق. فیجیب *الجواهری* بالإیجاب علی أساس أن هذا التاریخ قد یرقی به بعد إلی ما بعد عام ۱۹۰۰م ومن الممکن إرجاع سبب الاختلاف إلی عملیة تطبیق التاریخ الهجری علی المیلادی وقواعد التحویل.

ولما کان *الجواهری* قد أیّد التاریخ الذی أثبته *جعفر محبوبة* أی عام ۱۳۱۷ق فقد قال *الدکتور علی جواد طاهر*: «وکان الذی شجعه علی الإستمرار فی التأیید جهلة الفرق بین السنة المیلادیة والهجریة، وتصوره أن هذا التاریخ یرقی به إلی ما بعد عام ۱۹۰۰م»، ونرجع إلی قواعد تحویل الهجری إلی المیلادی وإلی الجداول العلمیة المعترف بها فیظهر أنه ولد یوم الأربعاء السادس والعشرین من تموز ۱۸۹۹م، ویبدو أن هذا هو التاریخ الصحیح لما هو معروف من صدق محبوبة وتثبته وصلته بآل الجواهر ولصیغة تاریخ الولادة حتی لکأنه استقاها من أوثق المصادر.

قال *الجواهری*: «ولدت مع مولد هذا القرن المضطرب، کان البیت الذی وُلدتُ فیه ونشأت بقرب الصحن العلوی، ولذلک تفتحت أول ما تفتحت علی هذه الفسیفساء الآدمیة العجیبة، المتداخلة، المتعارضة، التی یضمها الصحن والحضرة والسور المرمری الذی یحیطها»(الجواهری، ۱۹۹۸م، ج۱: ۳۵).

ولد *محمد مهدی الجواهری* فی السنین الأولی من القرن العشرین من أسرة دینیة؛ کان جده الأعلی *الشیخ محمد حسن* مرجع شیعة الإمامیة فیعهده وکتابه المشهور «جواهر الکلام» الذی اقتبست الأسرة لقبها منه(العلوی، ۱۹۶۹م: ۱۹). طلع

الجواهرى على القرن العشرين من بيت أسواره الدين والمذهب، وأعمدتـه العلـم والثقافـة والأدب ومـن مدينة بيئتها الدين وظواهرها التحفظ والالتزام ومحيطها بحار مـن كتـب الاسـتدلال والجدل والفلسفة والأحكام ورجالها علماء، فقها، مراجع التقليد، شعراء وأدبـاء، ومن بلـد تتكالب عليه القوى الإستعمارية.

إرتشف محمد *مهدى* مناهل الأدب واللغة والفلسـفة، فـدرس «الأجروميـة» و«قطـر الندى» و«ألفية ابن مالک» و«مغنى اللبيب» و«شرح النظـام فـى الصـرف» و«الحاشـية للملا عبدالله» و«شروح الشمسية فى المنطـق» و«المطـول والمختصـر فـى البلاغـة» و«شرح اللمعة» و«مكاسب الشيخ الأنصارى»(الجبورى، ١٩٩٣م: ١٠).

نشأ *الجواهرى* على والده العالم الأديب، قرأ مقدماتـه الأوليـة علـى أخيـه *عبـدالعزيز والشيخ على الشرقى*. الحساب على *السيد أبى القاسم الخوانسارى* والبيان والمعـانى علـى *الشيخ مهدى ظالمى والشيخ على ثامر* وحفظ الفقه وأصوله على *سـيد موسـى الجصـانى والسيد حسين الحمامى*(الفتلاوى، ١٩٩٩م: ٦١٣). هذا كله وهو لـم يشـتد عـوده بعـد بـل لا يزال فى الخطوة الأولى لعبور العقد الأول من عمره. أما لطفولة *الجواهرى* فله معهـا شأن، فقد عاش طفولة يلعب فيها دور الكبار صغير فـى قالب الكبير، صبى يطلب منـه أن يدع الصـبابة والطفولة ويعـيش عـالم الخبـراء الكبـار، أليس فى الأمر مغـامرة حقـاً! نشـأ فى كنف والده الفقيه والأديـب الـذى لازم إبنـة ملازمـة خاصـة وعنـى بـه عنايـة الأب والأسـتاذ والمرشـد، ولـن يفارقـه حتـى وافـاه الأجـل عـام ١٩١٧م.

والظاهر أن الالتزام الغير طبيعى من *الشـيخ عبدالحسـين* لإبنـه *مهـدى* إن دلّ علـى شىء، فإنما يدل على التشخيص الدقيق لنبوغ *الجواهرى* والاهتمام البالغ بمسـتقبله وهـو صبى وحسب. والحق أن الشيخ لم يكن متوهماً أبداً فى هذا وإن كان أمله فى إبنـه غيـر ما آل إليه محمد *مهدى الجواهرى*. قال *الجواهرى*: «بعد وفـاة والـدى إنفـردت بشخصـى و تفردت بشخصيتى، مثلمـا ينبغـى لكـل مخلـوق قبـل ذلـک كنـت مجـرد ظـل لـه ولوصـايته المحكمة على »(الجواهرى،١٩٩٨م، ج١ :١٥).

لقد دفع *الجواهرى* ثمناً باهضاً لطفولته تلک كما قال: «وقد أتعبتنى السـنوات العشـر الأولى منها أكثر من العشرات العشرات التى تلتها، فإليها تعود العقد، والرواسب، واخـتلاط الحسنات بالسيئات اختلاطاً يصـعب علـىّ وأنـا صـاحبه أن أجد لـه مبـرراً غيـر أن أعـود

القهقری إلی هذه المرحلة، التی حکمت کل حیاتی التالیة وغالباً ما کانت ذکریاتی عن الفترة مدیرة وکثیراً ما اختلطت هذه المرارة بالسخریة»(المصدر السابق: ۳۹).

درس *الجواهری* فی المدرسة العلویة فی مسقط رأسه، ثم أخذ علومة فی اللغة والأدب عن *محمدعلی المظفر* و*علی ثامر* وغیرهم من مشایخ الغری، ونبغ فی الشعر قبل أن یبلغ الحلم(بصری، بدون تاریخ: ۱۸۰).

الشاب الثوری

إذا کان *الجواهری* قد خسر طفولته ودفع ثمناً غالیا لمرارة أیام حملته واقعاً خاصاً، کان طبیعیاً أن یسود روحه طابعاً متمرداً یجره نحو التطرف بین الحین والآخر، والأمر من ذلک أن هذا الطابع المتمرد قد سکن کیانه ولازمه حتی خارج مراحل شبابه بل فی عمره کله.

وهو القائل: «إننی أعیش مرارة تلک الأیام حتی الآن، وکانت السبب فی کل هفواتی وسقطاتی اللاحقة بدافع طموحات لم أخلق لها»(الجواهری، ۱۹۹۸م، ج۱ :۴۹).

کان والده *الشیخ عبدالحسین الجواهری* حریصاً جداً علی متابعة إبنه *مهدی* لدروسه وحضوره معه، وإستصحابه إلی مجالس العلماء الکبار، لیدفعه دفعاً عجولاً نحو عالم الشیوخ وفی هذا المجال یقول *الجواهری*: «کانت سنوات حیاتی، خلال ذلک تختصر قسراً الی شهور، بل أسابیع وقد حملت إلی سنوات حیاتی اللاحقة، تبعات کل تلک الفترة التی سرقت منی، حملتها بکل تناقضاتها ومفارقاتها حیث انعکست علی حیاتی وشعری بل وعلی تعاملی مع الناس ومن معی، دائماً کان هذا الطفل الذی انتزعت منه طفولته یخرج من جدید بشکل ما مشاکساً عنیداً غافلاً متغفلاً متناقضاً مبلبلاً، وکان الطفل یفلت حالماً ینتهی من امتحاناته الیومیة الرهیبة لیخرج وقد أطلق سراحه إلی الزقاق فی وقت متأخر من النهار یکون فیه الأطفال قد شبعوا لعباً وعادوا أو أوشکوا أن یعودوا إلی بیوتهم»(الجواهری، ۱۹۹۸م، ج۱ :۵۴).

ویبدو أن هذا الإجحافات أو الخیبة التی کان یراها *الجواهری* فی التعامل القسری، بالنسبة له قد أدت به إلی نمو نزعة التمرد والتناقض لدیه فی سنین شبابه، ومن ثم فی بقیة عهود حیاته. ولم یکن *الجواهری* بالذی یرضی بطفولة کطفولته، ولا بصبوة

کصبوبة مما دفعه بالتالی فی عنفوان شبابه النزوع نحو الخلاص من هذه القیود، وهذه الزنزانات التی تهضم حقوقه فی الطفولة والشباب، لیصل إلی عهد یصف فیه نفسه وعمامته التی ألبسوه بها: «حتی لکأننی أصبحت. ابن جلا وطلاع الثنایا»، والمقصود "بابن جلا وطلاع الثنایا" *الحجاج بن یوسف الثقفی* والی الکوفة.

لقد رأی *الجواهری* التمرد لنفسه طریقاً وسلوکاً لم یکن بإمکانه الخلاص منه، وإن کان یرید ذلک لقد عاش کبیراً وهو صبی، وعاش حیاة الصغار وهو شیخ کبیر تجاوز الثمانین، وهذه المفارقات وسمات التناقض الذی کان یملأ حیاته. وقد قال: «عشت حیاة عاصفة، اختلطت فیها عوالم بعوالم، الفقه بالشعر، والشعر بالسیاسة، والسیاسة بالصحافة والصحافة بالحب والحب بالصداقات والبؤس بالنعیم والتوطن بالترحل والطفولة بالرجولة»(الجواهری، ۱۹۹۸م، ج۱:۱۴).

لقد أُرید للرجل أن یجعل فقیهاً نابهاً یعید المجد الغابر(لصاحب الجواهر)، لکنه بمجرد التنفیس، لیعلن التمرد علی کل الواقع المؤذی لطبعه وکیانه، لذلک لم یحقق أمل والده فی التمرس بالفقاهة وتطرف فی هذا تطرفاً علنیاً وثار ثورته الکبری علی التزمت الذی کان یمقته فی محیطه، وأودع العمامة جانباً وخرج أفندیاً متطرفاً یحمل بهجومه لیحتل المواقع واحد بعد الآخر ویمسک بزمام الأوضاع فی محیطه الثوری الجدید، الذی أستطاع أن یخلق لنفسه معتقداً أن أیام القفص الحدیدی قد ولّی دون رجعة وعلیه بنا قفصاً ذهبیاً یفتقد ببابه سجان لا یزهد بمفتاح قفصه وجاءت طلقاته قویة وقاتلة فی قصائد «جربینی» و«الرجعیون» لتجر بعدها طلقات أقوی وأخطر. ولنقرأ له أین أودع العمامة وبهذه السرعة الخاطفة إذ قال فی قصیدة «النزعة»:

قال لی صاحبی الظریف وفی الکفـ ـف ارتعاش وفی اللسان إنحباسه
أیـن غادرت عمة واحتفاظاً قلت: إنی طرحتها فی الکناسة
صاحبی لا ترعک خسة دهر کم نفوس شریفة حساسة

(الجواهری، ۱۹۸۶م: ۸۱)

ویفتح *الجواهری* صفحات التحدی بمسارات عدیدة تتراوح بالإفراط والتطرف فی مراحل، وبالرجوع والعودة إلی التراث البیئی مراحل أخری. یبدو أن *الجواهری* فی عهود تطرفه وإفراطه الساخر بکل شیء. أوضع ما یقال لوصف الحالة هو أنه أدرج ثورته وتمرده

على واقعه بالتحرک من التحفظ إلى التحرر، أو بالأحرى التحرک من مسار أقصى اليمين نحو أقصى اليسار.

وفاته ومدفنه

فى يوم الأحد ۱۹۹۷/۷/۲۷م رحل *محمد مهدى الجواهرى* الذى وافته المنية عن عمر بلغ ثمانية وتسعين عاماً بدمشق العاصمة السورية بعد عشرين عاماً من الإقامة فيها، وقد شيعت دمشق جثمانه بانطلاق مسيرة ضخمة، تقدمها نائب الرئيس السورى ممثلاً عن الرئيس *حافظ الأسد* ورئيس مجلس الوزراء *عبدالقادر قدورة* وعائلة الفقيد وشخصيات سياسية وثقافية وجمهرة غفيرة من العراقيين المنفيين، وقد إخترقت المسيرة شوارع دمشق فى طريقها إلى مقبرة الغرباء فى حى *السيدة زينب(ع)* حيث ترقد زوجته أم كفاح(جريدة الاتحاد، ۲۰۰۰م، العدد ۳۹۴).

العنف الثورى فى شعر محمد مهدى الجواهرى

يعود العنف فى شعر *الجواهرى* إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التى تمتاز بها شخصية *الجواهرى*، والشىء الذى يلفت الانتباه إليه فى عنف *الجواهرى*، هو أن عنفه ليس بالعنف الذى يوحى بالخشونة والحقد، فهو عنف تتطلبه ضرورة الموقف والزمن، وهو عنف قد جاء بمثابة رد فعل طبيعى لواقع مر، فالعنف عنف لا فرق لدى *الجواهرى* سواءً كانت القضية صغيرة أو كبيرة، يكفى أن يرفض أن يثور، أن يغضب، فتأتى القافية العنيفة لتعالج الموقف مدحة كان أم رثاءً وصفاً كان أم غزلاً، شكاية كانت أم عتاب.

عدا على كما يستكلب الذيب خلق ببغداد أنماط أعاجيب
خلق ببغداد منفوخ ومطرح والطبل للناس منفوخ ومطلوب
(الجواهرى، ۱۹۷۲م، ج۴: ۱۵۹)

ويحدث أن يحول الشاعر عنفه الشديد إلى استهزاء وسخرية ذات طابع اجتماعى يهز بعنفه هذا كيانين السلطة المتجبرة والجماهير من النوع الذى تطلب الراحة وتؤنس مع الظلم حين يقول:

نامى جياع الشعب نامى حرستک آلهة الطعام

نـــامی فـــأن لـــم تشـــبعی مـــن یقظـــة فمـــن المنـــام
نـــامی علـــی زبـــد الوعـــود یـــداف فـــی عســـل الکـــلام

(الجواهری، ۱۹۷۲م، ج۴: ۷۳)

ونرجع إلی عهد الثلاثینیات وأول إنقلاب عسکری عراقی وهو إنقلاب *بکر صدقی* ۱۹۳۶م حیث انبری *الجواهری* لیدعو قیادة الانقلاب إلی العنف الثوری علی المتلعبین بالشعب حینما یصرخ:

أقدم فأنت علی الأقدام منطبع وأبطش، فأنت علی التنکیل مقتدر
وثق بأن البلاد الیوم أجمعها لم ترجیه من مسعاک تنتظر

ویستمر یخاطب رئیس حکومة الانقلاب، لیعنف بالذین أراقوا دماء الشعب ونکلوا به أشد تنکیل ویقول:

فحاسب القوم عن کل الذی اجترعوا مما أراقوا، وما أغتلوا، وما احتکروا
للأن لم یلغ شبر من مزارعهم ولا تزحزح مما شیدوا حجر

حتی یصل إلی أعنف نقطة وهو هدف العنف من الذین لم یعرفوا فی تعاملهم مع الشعب سوی العنف:

فضیق الحبل وأشدد من خناقهم فربما کان فی إرخائه ضرر
تصور الأمر معکوسة وخذ مثلاً مما یجرونة لو أنهم نصروا
أکان للرفق ذکرفی معاجمهم أم کان عن "حکمة" أو صحبة خبر

(نفس المصدر، ج۲: ۳۱۷-۳۱۶)

وتتکرر الحالة بعد ثلاثة عقود من هذا التاریخ، حیث ثوره ۱۴ تموز ۱۹۵۸م، وحیث أسدل الستار علی العهد الملکی وحکوماته الشطرنجیة التی لعبت لعبتها بالشعب والملک. وفی قاعة المحکمة التی تصدرها *المهداوی* و*العقید ماجد أمین* لمحاکمة رجال العهد الملکی، فکانت بین برهة وأخری ترتفع صیحات الجالسین وهتافاتهم، فتراهم یلقون الخطب والأشعار المرتجلة أرتجالاً فکأنما هم فی سوق عکاظ وقد أثارت هذه الأجواء مشاعر العنف عند *الجواهری* فأهدی رئیس المحکمة قصیدة عظماء اهتزت لها أرکان المحکمه والحاضرون فیها وقد عبر فیها عما یجول فی خاطرة تجاهها وقال:

عصفت بأنفاس الطغاة ریاح وتنفست بالفرحة الأرواح

واليوم تشرق فی النفوس وضاحة ... ويشـــع فـــی حلكاتهـــا مصـــباح
جـــدعت عرانينـــا غـــلاظ فتيـــة ... مـــن يعـــرب غـــر الجبـــاه صـــباح
يجتاح باسم الشعب وغداً باسـمه ... راحـــت كرمـــة أمـــة تجتـــاح
(الجعفری، ١٩٩٠م:٣٧)

النفحة الجماهيرية الشعبية فی شعر الجواهری

فی عقود الثلاثينيات والأربعينيات وحتی الخمسينيات حيث النظام الملكی وحكومات حسب الظاهر وطنية لكنها مرتبطة، تعسـف وتظلـم وتعتقـل والخاسـر الوحيـد هـو ابنـاء الشعب، ولقد كانت ساحات الكرخ والرصافة تعج بالناس وتتحرک لمجـرد أعـلان الجرائـد بأن هناک قصيدة *للجواهری*، *الجواهری* والقصيدة النارية، *الجواهری* يتحـدی، فالجمـاهير كانت تتشوق إلی ما يقوله *الجواهری* ولمجرد السماع أو القراءة عبـر الجرائـد، فـإن أبيـات شهيرة من القصيدة تنتشر وتذاع، وتصبح كالأمثال السـائرة فـی أفـواه الجمـاهير تتنقلهـا طبقات المجتمع لا سيما المظلومون والمسحوقون وإن كان هذا يـدل علـی شـیء فإنمـا يدل علی الإلتصاق المباشر لشعر *الجواهری* مع قضايا الشعب، مع الأمـور اليوميـة للنـاس، مع الأحداث التی تثير الناس. إن وظيفة *الجواهری* بالنسبة للجماهير تكون مضـاعفة فهـو فضلاً عن إشتراكه مع الجماهير فی ايجاد الحدث، فإنه يری نفسه مسؤولاً عن حفظ ذلـک الحدث بقصائده وأشعاره لـذلک كانـت أشـعاره كالمـاء وكـالهواء يتلقاهـا النـاس بحـرارة وينشدونها حباً واحتياجاً.

فهناک أبيات أخذت شهرتها من التزام الناس بها وترديدها فی كل مجال ومكان، فـی الشارع، المدرسة، فی النوادی، المظاهرات والاعتراضات. هذا ليس فقط فی العـراق ومدنـه بل كانت تلک الأبيات المشهورة تنتقل سريعة إلی بقية أنحاء العالم العربی وإذا مـا كانـت القصيدة قد ألقاها *الجواهری* خارج العراق فإنها تنتقل سريعا إلی بغداد وبقية مدن العراق.

عندما كتب *الجواهری* قصـيدتة المعروفـة السـاخرة «طرطـرا» إعتراضـاً علـی الأجـواء التعسفية وحملات الاعتقالات واغلاق الصحف فعلت هذه القصـيدة فعلتهـا واصـبحت فـی ليلة وضحاها ترددها كافة الناس، الشباب، الكهول الفتيان وحتی الصبية. ولقد حملت هذه القصيده أفكاراً انتقادية حادة وهجوماً قاسية علی الحكومة ومن ورائها القوی الإستعمارية.

أی طرطـرا تطرطـری　　قـــــدمی تـــــأخری
تشـــــیعی تســـــننی　　تهـــــودی تنصـــــری

ومن خصائص المطلع لدی *الجواهری* قوته، تصریحه، استعمال فعل الأمر، لـذلک تـری کثیرة من قصائده وهو یخاطب الجماهیر ویحرک فیهم الهمم بـاطلاق فعـل الأمـر وذلـک لبیان جدیة القضیة وأهمیتها والتأکید علی العلاقة القویة ما بینه وبین أبناء الشعب.

وبحکم العلاقة الوطیدة بین *الجواهری* وبقیة الجماهیر، فالشعبیة کانـت مـن مضـامین شعر *الجواهری*، فلا یغیب عن أیة قضیة تحف الشعب دون أن یلتفت إلیها أو یشیر بهـا أو یدافع عنها، فلذلک أصبحت أبیات من قصائد مختلفة عناوین لمسـمیات تتعلـق بظـروف الناس مثلاً غاشیة الخنوع، أطبق دجی، الکوفة، الکوفة الحمراء، دجلـة الخیـر، أتعلـم أم لا تعلم، هضبات العراق، فتی الفتیان، أرح رکابک.

فهذه کلها عناوین أخذت من عبارات المطلـع أو مـن عمـق القصـیدة، فتحولـت إلـی لافتات وشعارات تداولها الناس وقد تطابق غیر أحداثها وتستعمل فی غیـر أماکنهـا، فإنهـا وإن کانت تشیر إلی قصیدة معینة، أو حادثة خاصـة، فإنهـا مـن مواضـیع تعـالج الأحـوال العامة للناس وتدخل حیاتهم ومفرداتها. ویکفی أن تنظر إلی قصیدة کـان *الجـواهری* قـد نظمها تمجیداً للشعب الکردی ونضاله ومطلعها.

قلبی لکردستان یهدی والفـم　　ولقد یجود بأصـغریه المعـدم

وجاء فی آخر بیت من القصیدة المتکونة من ستین بیتا:

شعب دعائمه الجمـاجم والـدم　　تـــتحطم الـــدنیا ولا یـــتحطم

(الجواهری، ۱۹۸۶م: ۵۰۲)

لقد تناقل أبناء العراق هذا البیت وسار سیر النـار فـی الهشـیم حتـی طـلاب مـدارس الإبتدائیة کانوا یحفظونها ویرددونها، والطریف فی هذا الأمر أن هـذا البیـت أصـبح شـعاراً یلقیها الکثیر من الأحزاب والمنظمات السیاسیة وتجعله خاصاً بها بالمضمون دون الإشـارة إلی صاحب هذا البیت الشعری، ولا یغرب علی العـراقیین مـن کافـة شـرائحهم. إن نظـام البعث فی العراق کان فی العقد الأول من حکومته قد اتخذ من هذا البیت الشعری شـعاراً لأدبیاته، یلقیه فی مسیراته وتجمعات الشعب فی المناسبات المختلفة، بل کان یغیـر مـن بعض کلماته أو یبدله بکلمات تتوافق مع ما یرید، حتی ظن الناس أن البیت لأحد قیادی

الخرب الدكتاتورى، فمثلاً غيروا بين مدة وأخرى كلمة "شعب" ووضعوا مكانها "وطن" أو كلمة "دعائمه" ووضعوا مكانها "تشيده" ليصبح «وطن تشيده الجماجم» أو «حزب تشيده الجماجم» إشارة إلى حزب البعث.

فى حال كان *الجواهرى* هارباً منهم وخارجاً من العراق. أما بالنسبة إلى نهر دجلة فقد أهدى *الجواهرى* لهذا النهر المعطاء لقباً وإسماً يبقى ما بقى الدهر، وهو "دجلة الخير" بقصيدته الذائعة الصيت:

حييت سفحک من بعد فحييني يا دجلة الخير، يا أم البساتين
حييت سفحک ضمآناً ألوذ به لوذ الحمائم بين الماء والطين

(الجواهرى، ۱۹۷۲م، ج۵:۸۱)

هذا هو الالتحام بالأرض والشعب. *فالجواهرى* وإن كان مغترباً لم يكن لينسى شعبه وهمومه. لم يكن بعيداً عن واقع همومهم ومعاناتهم، وما كان يريد بدجلة الا الأهل والأحباب، الجماهير التى كانت تنتظره على أحر من الجمر.

اليس هو القائل «شاعر لا يوجد الناس فى ديوانه ليس بشاعر، نعم هو يصوغ وينمق، ولكن إلى أى مدى هناک حضور للناس فى ديوانه وإلى أى مدى هو مع الناس، هذا هو السوأل»(الجواهرى، ۱۹۹۹م: ۵۱).

وما أظن الجواب إلا فى قوله:

أنا العراق لسانى قلبه ودمى فراته، وكيانى منه أشطار

(نفس المصدر، ج ۴: ۲۷۴)

أو فى قوله:

أنا "عروة الوردى" رمز مرؤة العرب العريب
وزعت جسمى فى الجسوم ومهجتى بين القلوب

(نفس المصدر، ج۵: ۵۳)

يكفى أن تنظر وتتأمل فى القصائد الجواهرية والتى أنشدها عبر قرن كامل لتجد أن *الجواهرى* قد سلک طريقاً شعرياً تمحور فيه على أسس عموده الوطن، فالوطن هو الشغل الشاغل للشاعر، والوطن عبارة عن وحدات متراصفة فوق أخرى، لتبدأ من الأهل، المجتمع، الأرض بسهوله ووديانه وجباله وصحرائه، لم يتوقف *الجواهرى* فى حدود وطنه

بل کان یری وطنه إمتداد الوطن أکبر وأن هموم هذا الوطن هی هموم الأمة فسعادة شعبه هی من سعادة أمته ومحنة شعبه هی محنة أمته وإذا کان الاستعمار الإنجلیزی قد نهش السنین طویلة جسد العراق، فسوریة ومصر والجزائر قد ابتلت وجرحت من حرب الاستعمار الفرنسی وإذا کانت الحکومات الرجعیة قد تسلطت علی رقاب الشعب العراقی قرابة خمسین عاماً فالأمر کذلک فی بقیة بقاع العالم العربی، إذن فالمصیبة *للجواهری* نفسها والهم واحد لا فکاک(إعتمادی، ۱۳۸۷، ش: ۱۰۲). فعلی المستوی الوطنی کان *الجواهری* وطنیاً غیوراً مدافع عن أستقلال بلده وحریته بوجه الطامعین المستعمرین، وکیف یکون *الجواهری* غیر ذلک وهو سلیل عائلة عراقیة وعربیة مناضله أشتهرت بوطینتها ومواقفها الکفاحیة المعروفة جیداً فی النجف، وفی عموم العراق، فوالده کان من الوطنیین الأحرار الذین قاموا الاستعمار البریطانی أما أخوه *جعفر* فقد قضی شهیداً وهو فی ریعان الشباب دفاعاً عن الوطن وحریته وقد کتب عنه *الجواهری* أعظم القصائد(الجواهری، ۱۹۹۹م: ۲۳۶) إذ کان *الجواهری* قد أنشد للثورة العراقیة قصائد تحرک الهمم وتمجد الثائرین:

إن کان طال الأمد — فبعد ذا یوم غد
أسیافکم مرهفة — وعزمکم متقد
هبوا فعن عرینه — کیف ینام الأسد
ما آن أن تجلوا القذی — عنها العیون الرمد

وعندما یغنی *الجواهری* لبغداد:

خذی نفسی الصبا بغداد أنی — بعثت لک الهوی عرضاً وطولاً
أبغداد اذکری کم من دموع — أزارتک الصبابة والغلیلا

(الجواهری، ۱۹۸۶م:۹۷)

لقد توسع الفکر الأدبی والسیاسی *للجواهری* فی رقعة الوطنیة والقومیة لتأخذ أبعاداً اکثر شمولیة تضرب فی العمق الإنسانی، فنتج لدیه أدباً أممیاً إنسانیاً یستجیب للحدث الإنسانی أینما کان ویمجد الشواخص الإنسانیة بتفاصیلها ومفرادتها أحداثاً وشخصیات وقضایا. فتری فی شعره إلماماً مطرداً لما یدور حول الأدب العربی وساحاته ولم یکن لیحصل هذا إلا لکون *الجواهری* یتمتع بفکر رحب وخیال نافذ والتزام بقضایا الإنسان لقد

كتب وأنشد لشخصيات عالمية وأرخ بشعره لأحداث مصيرية مرت علـى القـرن العشـرين، ونجده فى عام ۱۹۲۶م يصبغ مؤتمر نزع السلاح فى موسكو بصـبغة إنسـانية ويهـيج فيـه روحاً تتحرق لأطفال العالم حيث هم الضحية الأكثر مأساوية قياس إلى بقية الناس.

ولم ينس *الجواهرى* إيران، حيث أقرب الأرتباط بين النجف وحوزته بل العراق وشـعبه مع إيران وشعبه، وقد قال بحق شهداء إنتفاضة الشعب الإيرانى على *الشاه* ومجىء حكومـة مصدق وتأميم النفط عام ۱۹۵۲م:

سـالت لتعلـى مـا تشـاء دماؤهـا ... وهـوت لترفـع شـأنها شـهداؤها
وانصـاع مخضـوباً يركـز نفسـه ... مـا بـين ألويـة الشـعوب لواؤهـا
ضاءت بالمهجات تفـرش أرضـها ... بالمكرمـات النيـرات سـماؤها

(نفس المصدر، ج۴:۱۲۴)

وواكب *الجواهرى* انتصارات الجيش الروسى فى الحرب العالمية الثانيـة فتعـاطف وأيـد ومجد ذلك عبر قصائد عديدة منها قصيدة «سواستبول» و«ستالينغراد» وغيرها.

قال فى قصيدة «ستالينغراد»:

نضـت الـروح وهزتهـا لـواء ... وكسـته واكتسـت منـه الـدماء
ومشت فى زحمة المـوت علـى ... قـدم لـم تخـش مـيلاً والتـواء
أقسـمت بأسـم عظـيم كرمـت ... باسـمه أن لا تهـين العظمـاء
يـا اسـتالين ومـا أعظمهـا ... فى التهجى أحرفـاً تـأبى الهجـاء
يا تولستوى ولم تـذهب سـدى ... ثـورة الفكـر ولا طـارت هبـاء

(نفس المصدر، ج ۳: ۵۱)

نتيجة البحث

يعـد هـذا الاسـتعراض بجوانـب الموضـوع يمكننـا أن نشـير إلـى بيـان أهـم النتـائج المستخلصة من هذه الدراسة وهى كالآتى:

أولاً: العنف الثورى فى شعر *الجواهرى* يعود إلى الطبيعة المزاجية العنيفة التـى تمتـاز بها شخصية *الجواهرى*.

ثانياً: إن العنف الثورى فى شعر *الجواهرى* قد جاء بمثابة رد فعلٍ طبيعى لواقع مُر.

ثانیاً: إن *الجواهری* یری نفسهُ مسؤولاً عن حفظ الحدث بقصائده وأشعاره وکان النـاس یتلقون أشعاره بحرارة وینشدونها حباً.

رابعاً: إن النفحة الشعبیة کانت من مضامینَ شعر *الجواهری*.

خامساً: إن *الجواهری* قد سلک طریقاً شعریاً تمحـور فیـه علـی أُسـس عمـود الـوطن، فالوطن هو الشغل الشاغل للشاعر.

سادساً: کان *الجواهری* یدعو الجمیع إلی التحدّی والعنف مقابل الضعف.

سابعاً: کان *الجواهری* یخاطب رئیس حکومة الانقلاب، لیعنف بالذین اَراقوا دماء الشعب ونکلوا به أشد تنکیل.

ثامناً: إن *الجواهری* یتمتع بفکرٍ رحب وخیال نافذ والتزام بقضـایا الانسـان فتـری فـی شعره الماماً مطرداً لما یدور حول الأدب العربی.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی

المصادر والمراجع

اعتمـادی، م. ۱۳۸۷ش، **الجواهری، حیاته، اسلوبه الشعری وخلفیتــه الثقافیـة**، ایـلام: جامعـة آزاد الاسلامیة.

الجبوری، ع. ۱۹۹۳م، **الجواهری، نظرات فی شعره وحیاته**، بیروت: دار الکتب العلمیة.

الجعفری، م ح. ۱۹۹۰م، **محکمة المهداوی**، بغداد: دار الشؤون الثقافیة.

الجواهری، م م. ۱۹۷۹م، **دیوان الجواهری**، دمشق: مطبعة دمشق.

الجواهری، م م. ۱۹۸۶م، **الجواهری فی العیون من أشعاره**، دمشق: دار طلاس للدراسات والنشر.

الجواهری، م م. ۱۹۹۸م، **ذکریاتی**، ج ۲، الطبعة الأولی، دمشق: دار الرافدین.

العلوی، ه. ۱۹۶۹م، **محمد مهدی الجواهری**، بغداد: دراسات نقدیة.

الفتلاوی، ک ع. ۱۹۹۹م، **المنتخب من أعلام الفکر والأدب**، الطبعة الأولی، بیروت: مؤسسة المواهب.

Bibliography

Etemadi, M. 2008 A.D; Jahheri, His Life and Poetry Style and His Ethics and Culture, Ilam, Islamic Azad University

Al-Jabouri, A. 1993; Al-Jawahiri and Look at His Poetry and Life, Beirut Scientific Library

Jafari, M. H. 1990; Baghdad Mahdavi Court, House of Culture

Al-Jawahiri, M.M. 1979; Javaheri's Divan, Damascus, Damascus Publication

Al-Jawahiri, M.M., 1986; M. Jahheri in His Poems Springs, Damascus Darul-Tallas, For Research and Publication

Al-Jawahiri, M.M. 1998; My memories, Vol.2, Damascus, Dar al-ravazin, 1st edition

Alavi, H. 1969; Mohammad Mehdi Javaheri and Study of the Revolution in Baghdad

Al-Fatlawi, K. A. 1999, Selected by the Elders of Science and Literature, Beirut, Al-Mowbat Institute, 1st Edition

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی